المجلد:01، العدد:01، 2012.
ص219-225

مجلة منبر التراث الأثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267

ألتافا الرومانية (أولاد ميمون) في نهاية التاريخ القديم

لخضر فاضل

جامعة وهران

الملخص:

نالت العديد من مدن الشرق و الوسط الجزائري اهتماما كبيرا من قبل الدارسين و الباحثين الفرنسيين على وجه الخصوص الذين وضعوا لها دراسات مونوغرافية تسلط الضوء على تاريخ المدينة القديم وتطورها السياسي والحضاري ، والعوامل المختلفة التي أثرت في ازدهارها أو أدت إلى انحطاطها .غير أن مدن الغرب الجزائري لم تحظى بهذا الاهتمام و العناية ،مما دفعنا إلى تخصيص سلسلة من الدراسات تتناول عددا من هذه المدن التي كان لها صيت ذائع في العصور القديمة .من بينها مدينة ألتافا الرومانية (أولاد ميمون الحالية في إقليم تلمسان) التي تضرب جذورها عميقا في عصور ماقبل التاريخ ، وبلغت أوج ازدهارها الاقتصادي وتوسعها العمراني إبان القرن الرابع الميلادي.ويأتي هذا المقال ليتتبع مسيرة التواصل الحضاري في هذه المدينة منذ نشأتها إلى غاية الفتح الإسلامي.

1- تاريخ الدراسات :

تعتبر أولاد ميمون (Altava) من المواقع الأثرية التي تركت مختلف العصور التاريخية بصماتها عليها، كشاهد على التمازج والتواصل الحضاري الذي عرفته المنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ إلى نهاية العصور القديمة، غير أن الدارس لتاريخها سوف يلفت انتباهه ندرة النصوص الأدبية والتوثيق الأثري فيما يخص الفترة التاريخية، علاوة على نقص المعطيات الأثرية لفترة ما قبل التاريخ، وعليه فإن تطور تاريخ أولاد ميمون (Altava) مرتبط بمعطيات غير مكتملة وبنتائج الاكتشافات واللقى الأثريةالمعثور عليها بطريق المصادفة. إذ نشير في هذا السياق إلى أن عامل الصدفة كان وراء معظم الاكتشافات الأثرية خارج التنقيبات الأكاديمية القليلة جدا التي أجريت بها، بحيث يتردد كثيراً لدى الباحثين في تاريخ وتطور المدينة عبارات : اكتشف في ظروف غامضة، عثر عليها أثناء إنشاء السكة الحديدية أو محطة القطار أو خلال إنجاز طريق، أو في سهل أولاد ميمون. إلى آخرها من المناسبات التي تكشف لنا كل مرة عن جانب من تاريخ وحياة المدينة خلال العصور الغابرة [1].

لا شك أن الموقع الأثري لأولاد ميمون (Altava) كان محل تنقيبات متواضعة ومحدودة زمنا ومساحة، وذلك راجع لقلة الدعم المادي، غير أن السبب الحقيقي هو الإهمال الذي كان هذا الموقع عرضة له لمدة طويلة والذي حال دون القيام بتنقيبات أوسع نطاقا وأكثر فعالية من التي تمت حتى الآن، ففي سنة 1852 أنشئت قرية أولاد ميمون بقرار رسمي من الإدارة الاستعمارية الفرنسية، ثم أصبحت تدعى سنة 1874 بلاموريسيير (Lamoricière) و كان بنائها فوق بقايا المدينة القديمة وبذلك طمر جزء منها تحت التراب إلى الأبد. وقبل ذلك في سنة 1850 أدى مد طريق وتعبيده إلى تدمير الزاوية الشمالية الشرقية للسور، كما ترتب عن إنشاء خط السكة الحديدية التي تخترق المدينة الرومانية من الشرق إلى الغرب وبناء محطة القطار وسطها، قلب مركز المدينةالرومانية رأسا على عقب [2].

استمر تخريب وتدمير ما تبقى من الموقع الأثري لأولاد ميمون (Altava) بصورة غير مباشرة خلال النصف الثاني من القرن العشرين نتيجة الإهمال واللامبالاة،و سوء الأوضاع الأمنية بسبب الثورة التحريرية.ففي سنة 1954 أدى حفر قناة سقي زراعية شمال المدينة الرومانية إلى الإجهاز على ما تبقى من أساس سورها الشمالي [3]، كما اختفت زاويته الشمالية الشرقية بسبب مد الطريق الوطني رقم سبعة. [4] وفي مطلع سنة 1957 لم يتمكن السيد بول كورتو" P.Courtot "مدير الدائرة الأثرية الرابعة عشر من استئناف العمل الميداني بالموقع لسبب بسيط هو أن السلطات العسكرية الفرنسية أقامت معسكر لجنودها فوق الجزء غير المنقب من موقع المدينة القديمة الذي كان تحت إشراف لجنة المعالم التاريخية، ورغم حصول السيد كورتو" P. Courtot " على ضمانات من قائد الفرقة العسكرية بحماية البقايا الأثرية، فإن ذلك لم يحل دون الإضرار بالموقع بسبب الممارسات الغير واعية للجنود، وهذا ما حمل الدائرة الأثرية على إحاطة الجزء الذي أجريت به التنقيبات بسياج من الأسلاك الشائكة لضمان حماية دائمة له. وكان آخر ضرر مهم أصابه هو اختفاء البقايا المهمة للزاوية الجنوبية الغربية للسور تحت وطأة الجرافات التي قامت بإزالتها أثناء تهيئة الأرض بغرض إنجاز أحد المشاريع[5].

يتضح مما سبق صعوبة تتبع مختلف المراحل التاريخية لأولاد ميمون (Altava)في ظل المعطيات المتوفرة، لاسيما بعد ضياع الجزء الأكبر من معالم المدينة تحت المنشآت والمساكن الحديثة. ورغم ذلك تبقي كتابة بعضا من تاريخها ممكنا بفضل الاكتشافات المحققة حتى الآن، إلى جانب عدد كبير من النقوش بعضها نقوش رسمية كالمعالم الميلية التي حملت أسماء عدد من الأباطرة والموظفين الرومان الذين أشرفوا على مد أو صيانة الطرق التي وجدت هذه المعالم على جنباتها، علاوة على النقوش الإهدائية والتذكارية التي توجه بها سكان المدينة، أو تلك المهداة من قبل قادة الفرق العسكرية المرابطة بالمدينة إلى الآلهة المحلية، على أن القسم الأكبر منها عبارة عن نقوش جنائزية *.

زيادة على ما تقدم تأتي نتائج الدراسات الميدانية، والتنقيبات الأثرية لتزيح النقاب عن المنشآت الاقتصادية الفلاحية كمعاصر الزيتون ومطاحن الحبوب التي تنتشر بشكل واسع بين أنقاض المدينة الرومانية، إلى جانب الأدوات ذات الاستخدام اليومي كالجرار والأواني الفخارية والحلي والمزهريات والأدوات الطقسية المستخدمة في المراسيم الدينية. فكل هذه المعطيات المتنوعة تكشف لنا عن جوانب مهمة من مجالات الحياة السياسية، الإدارية الدينية، والاقتصادية التي عاشتها المدينة خلال فترة الاحتلال الروماني وما بعده بقليل.[1] وعليها سنستند لدراسة تاريخها ومختلف التطورات التي طرأت عليها في مختلف النواحي، وذلك من خلال البحث في تاريخ الوجود الإنساني والحضاري بها منذ عصر ما قبل التاريخ مرورا بالفترات التاريخية المختلفة التي تعتبر الفترة الرومانية بها الأبرز والأكثر حضوراً.

لكننا في هذا المقام سوف نسلط الضوء على المرحلة الأخيرة من تاريخ المدينة خلال العصر القديم والتي تنحصر من فترة الاحتلال الوندالي إلى الفتح الاسلامي للمنطقة الواقعة بها وهي اقليم تلمسان(بوماريا الرومانية).

2-. الاحتلال الوندالي .

تشير نقيشة جنائزية عثر عليها وسط أنقاض أولاد ميمون (Altava) إلى أن المتوفية قتلت على يد البرابرة « Barbaros » في الفترة الممتدة ما بين الرابع عشر أوت والفاتح من سبتمبر سنة 429 [6]. ويعتقد كورتوا "Ch. Courtois" أن الوندال هم البرابرة المقصودين بالنقيشة، وبالتالي تعتبر هذه الأخيرة دليلا على مرورهم بالمدينة، وأنه بحساب متوسط سرعة سيرهم من طنجة (Tangis) نحو عنابة (Hippo Regius) يكونون قد تواجدوا بهذه المنطقة خلال هذه الفترة [7]. غير أن كورتو "P. Courtot"" يخالفه الرأي ويعتقد أن لفظه البرابرة كان يطلقها السكان المرومنون على الموريين، وأن المتوفية قتلت أثناء غارة قامت بها أحد القبائل المورية على المدينة في نفس الوقت الذي مر فيه الوندال بالمنطقة [8].

أعلن الملك الوندالي جنسريق "Genseric" سنة 455 بطلان الاتفاق الذي أبرمه مع الإمبراطور الروماني فالاتنيانوس الثالث « Valentinianus III » سنة 442 إثر اغتيال هذا الأخير، واستولى على ما تبقى من المقاطعات الرومانية الخارجة عن سيطرته ومن ضمنها موريطانيا القيصرية. غير أن الاحتلال الوندالي ظل منحصرا بالمقاطعات الشرقية كإفريقية البروقنصلية، المزاق، نوميديا وطرابلس، وظلت موريطانيا السطيفية والقيصرية خارج سيطرته، وعليه لم تخضع أولاد ميمون لسلطانهم. وتؤكد نقوشها الجنائزية لسنوات 439، 446، 489

هذه الطرح ، إذ ظل التأريخ بتاريخ المقاطعة ساري المفعول بها، وفي ذلك أكبر دليل على عدم خضوعها لسلطة الملك الوندالي [9].

ورغم أن أسقفها آووس « Auus Episcopus Altabensis » ذكر العاشر ضمن أساقفة موريطانيا القيصرية الذين حضروا مجمع قرطاجة (Karthago) سنة 484، فإن ذلك لا يعتبر دليلا على خضوع المدينة لسلطة الملك هنريك" Huneric"، لأن حضور الأساقفة الكاثوليك إلى هذا المجمع كان للدفاع عن عقيدتهم استجابة للسلطة الروحية لأسقق قرطاجة باعتباره رئيس أساقفة إفريقيا، وليس للسلطة الفعلية للملك الوندالي [10].

أدى تراجع الاحتلال الروماني عن غرب موريطانيا القيصرية منذ منتصف القرن الرابع، ثم الغياب التام للسلطة الوندالية بها وبكل المقاطعة، إلى سيطرة الموريين على المنطقة وتأسيسهم لممالك محلية، ما لبثت أن بسطت سيطرتها على المدن الرومانية الواقعة على الليمس ومن ضمنها أولاد ميمون (Altava)، حيث تكشف لنا النقيشة التي عثر عليها بها والمؤرخة بسنة 508 عن إهداء لمازونا (Masuna) ملك شعب المور و الرومان الذي شيد بها قلعة تولي بنائها ثلاثة من موظفيه وهم ما سيغفين (Masgivin) حاكم عين تموشنت -Safar) Albullae)، إيدير "Iader" وكيل قلعة سيدي على بن يوب (Capputtasaccura -Castra Severiana)، وماكسيموس« Maximus » حاكم أولاد ميمون (Altava) [11].

تشير النقيشة إلى أن المدينة أصبحت جزءا من مملكة مازونا « Masuna » التي ضمت معظم غرب موريطانيا القيصرية. ويعتقد فيفريي « P-A. Février » أن إضافة السطر الأخير إلى النص الأصلي للنقيشة يوحي بأن ماكسيموس "Maximus" لم يشارك منذ البداية في تشيد هذه القلعة، ربما أن المدينة لم تخضع لسلطة مازونا « Masuna » إلاّ بعد مدة من المقاومة مما جعله يضعها تحت سلطة حاكمي المدينتين المجاورتين وكلفهما ببناء القلعة لتقيم فيها حامية مورية دائمة للسيطرة على المدينة، وإثر خضوعها التام له عين ماكسيموس « Maximus »حاكما عليها، هذا الأخير يكون قد أضاف سطرا أخيرا أسفل النقيشة ليذكر فيه بجهوده في إتمام عملية البناء، ثم أصبحت القلعة بعد ذلك ملجأ لسكان المدينة ضد غارات القبائل المورية المعادية لسلطة المالك مازونا « Masuna »، مما يعني اضطراب الأمن خلال هذه الفترة [12].

تظهر النقيشة أيضا استمرار النظم الرومانية والحياة الحضرية بالمدينة، بحيث يتبين ذلك من خلال الألقاب الوظيفية الرومانية التي تلقب بها موظفو الملك مازونا "Masuna" كالحاكم « Praefectus » والوكيل

مجلة منبر التراث الأثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267

« Procurator ». وكان استمرار العمل بأساليب الإدارة الرومانية من قبيل الاستفادة منها في[13] إدارة شؤون سكان المملكة الذين كانوا خليطا من المورو المرومنين كما بينته النقيشة. إلى جانب ذلك تواصلت عملية الاندماج الحضاري بين العناصر المورية والمرومنة تحت سلطة مازونا "Masuna" حتى قبيل الاحتلال البيزنطي، هذا ما تدل عليه الرسوم الهندسية والزخرفية لنقيشة جنائزية مؤرخة بسنة 530 [14].

3-الاحتلال البيزنطي .

احتل البيزنطيون شمال إفريقيا منذ سنة 533، غير أن سلطتهم ظلت محصورة بغرب موريطانيا السطيفية، بالتالي ولم تخضع مدينة أولاد ميمون (Altava) أبدا لسلطانهم. ورغم وجود بعض القرائن التي تشير إلى انهم ربما مدوا سلطتهم إليهم، إلا أنها لا تعتبر أدلة يمكن الموثوق بها. فالقلادة الذهبية البيزنطية التي تعود لعهد الإمبراطور البيزنطي جوستنيانوس "Justinianus" (527-566) والتي عثر عليها بالمدينة أثناء إنشاء محطة القطار، لا تعتبر دليلاً على الاحتلال البيزنطي لها إذ أن وجودها بها هو نتيجة للمبادلات التجارية [15]. أما بالنسبة للقلعة التي مازال سورها المبني بالحجارة والتراب قائما*،وذكر قوريراس "G. Gureyras" أنها شيدت من قبل البيزنطيين، فهي من العهد الإسلامي كما قال بذلك غزيل [16]« St. Gsell ».

تعتبر النقوش الجنائزية لسنتي 583 و599 أحدث النقوش المتعلقة بتاريخ المدينة *، بحيث لم تكشف الحفريات بها عن نقوش تعود للقرن السابع، غير أن عدم العثور عليها لا يعني أنها لم تمتد إلى أبعد من نهاية القرن السادس، إذ يحتمل أن تكون قد ضاعت [17]. وتمثل النقيشة المكتشفة بوليلي (Volubilis) بموريطانيا الطنجية والمؤرخة بسنة 655 آخر نقيشة ورد فيها ذكر أولاد ميمون (Altava)، فهي تشير إلى يوليا روقاتيانا « Julia Rogatiana » المنحدرة منها، تبناها سكان وليلي (Volubilis) وتوفيت بمدينتهم سنة 655،حيث أقام لها أحفادها وأبنائهاهذا التذكار. ويعتقد كاركوبينو « J. Carcopino » استنادا إلى هذه النقيشة أن العلاقات والروابط الدينية والحضارية بين سكان أولاد ميمون (Altava) وتلمسان (Pomaria) من جهة، وسكان وليلي (Volubilis) من جهة ثانية،استمرت وذلك ما بعد بداية الفتح الإسلامي للمنطقة [18].

تواصلت الفتوحات الإسلامية بشمال إفريقيا، حيث توغل المسلمون في المغرب –موريطانيا القيصرية- بقيادة الفاتح أبو المهاجر دينار الذي تمكن حوالي سنة 678 من القبض على الملك البربري كسيلة بعيون تلمسان [19]، القريبة جدا من أولاد ميمون (Altava). وخلافا لوليلي (Volubilis) وتلمسان (Pomaria) اللتين أصبحتا من أهم المدن والحواضر خلال العهد الإسلامي، عرفت هذه المدينة مصيرا آخر إذ طواها النسيان منذ منتصف القرن السابع *.

الهوامش:

[1] Lethieullieux (J), Les sites Romains en Oranie, notes manuscrites, 1982, p. 316.
[2] Ibid., p.317
[3]Ibid., p 316 .
[4] Lassus (J.), «l"Archéologie Algérienne en 1955 », libyca, Archéologie- Epigraphie, IV, 1956, p. 161.
[5]Lethieullieux (J.), Op.cit., p. 316.
* تحتوي قائمة النقوش الجنائزية لأولاد ميمون (Altava)[6] على 300 نقيشة، منها 250 نصب مؤرخة و100 غير مؤرخة مسيحية لفترة زمنية تبلغ أربعة قرون، من مطلع القرن الثالث حتى نهاية القرن السادس ومعظمها نقوش ورغم فائدتها . التاريخية القليلة إلا أنها ذات أهمية كبيرة من الناحية الديمغرافية والاجتماعية.
[6]Leglay (M), «L"Archéologie Algérienne en 1954 », Libyca-Archeologie-Epigraphie , III, 1955, p. 185.

A.E, 1985, N° 85. D'après Courtois (Ch), op. cit., p. 367. N° 01.
[7] Courtois (Ch), op. cit., P. 162.
[8] Courtot (P), «Altava », Encyclopédie Berbère, IV, P. 548.
[9] C.I.L., VIII., 21774, 21719 ; Courtot (P), «Inscriptions d'Altava », Libyca, VI 1958, P. 155.
[10] Toullotte (Mgr), Géographie de l'Afrique chrétienne, IV (Les Mauretanies), Paris, Imprimerie notre dame des pères, 1894, P. 36 : Courtois (Ch), op. cit., P. 177.
[11] C.I.L, VIII, 9835 ; Demaeght (L), Catalogue de Musée d'Oran, N° 114.
[12] Février (P-A), «Nouvelles observations sur l'inscription du roi Masuna a Altava », B.C.T.H.S, 18 B, 1988, p. 157.
[13]
[14] C.I.L., VIII, 21738 ; Demaeght (L), Catalogue du Musee d'Oran, N° 513.
[15] Demaeght (L), «Monnaie Byzantine trouvée dans les ruines d'Altava (Lamoricière) », B.S.G.A.O, 9, 1889, p. 349.
* أنظر الشكل رقم (9).
[16] Gureyras (G), op. cit., p. 128 ; Gsell (St), A.A.A., F. 31. N°69.
* أنظر الشكل رقم (10).
[17] C.I.L, VIII, 9870 ; Courtot (P), «Inscriptions d'Altava », Libyca. Archéologie- Epigraphie, VI, 1958, pp. 156, 158.
[18] Carcopino (J), le Maroc antique, Montrouge, Gallimard, 1943, P. 295.
[19] عبد الرحمن ان خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن تبعهم من ذوي السلطان الأكبر، 6، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ص. 127.
* هذا طبعا إذا استثنينا إشارة جغرافي رافينا في مطلع القرن الثامن إلى مدينة سماها ألثبا (Altaba) تقع بموريطانيا أنظر :
Anonyme de Ravenne, Geographia, p. 42. D'après. Tauxier (H), «Essai de restitution de la table de Peutinger pour la province d"Oran », B.S.G.A.O, 4, 1884, p. 292.

مجلة منبر التراث الأثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267

فهرس المصادر و المراجع:

1-Lethieullieux (J), Les sites Romains en Oranie, notes manuscrites, 1982,.
2- Lassus (J.), «l"Archéologie Algérienne en 1955 », **libyca, Archéologie- Epigraphie,** IV, 1956, p. 161.
3-Leglay (M), «L"Archéologie Algérienne en 1954 », **Libyca-Archeologie-Epigraphie** , III, 1955, p. 185.
4-Tauxier (H), «Essai de restitution de la table de Peutinger pour la province d"Oran », **B.S.G.A.O**, 4, 1884, p. 292.

5- Lassus (J.), «l"Archéologie Algérienne en 1955 », libyca, Archéologie- Epigraphie, IV, 1956.
6- Courtot (P), «Inscriptions d'Altava », Libyca. Archéologie- Epigraphie, VI, 1958.
7- عبد الرحمن ان خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن تبعهم من ذوي السلطان الأكبر، 6، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992.
8- Carcopino (J), le Maroc antique, Montrouge, Gallimard, 1943.
9- Cagnat ®, Schmidt (J), Corpus Inscriptionum Latinarum supplementum, VIII, Pars I-II, Berlin, 1891-1894.
10- Gsell (St), Atlas Archéologique de l'Algérie, Paris, 1912.
11- Demaeght (L), Catalogue raisonnée des objets archéologiques au Musée d'Oran, Paris, Oran, 1894.
12- Gureyras (G), «Les Traces du passé a Lamoricière (Stations préhistoriques, Altava, Hadjar Roum », B.S.G.A.O, 6, 1886, pp. 123-135.
13- Demaeght (L), Monnaie Byzantine trouvée dans les ruines d'Altava (Lamoriciere) », B.S.G.A.O, 9, 1889, p. 349.
14- Février (P-A), «Nouvelles observation sur l'inscriptions du roi Masuna a Altava », B.C.T.H.S, 18, 1988, pp. 153-157.
15- Toullotte (Mgr), Géographie de l'Afrique chrétienne, IV (Les Mauretanies), Paris, Imprimerie notre dame des pères, 1894.
16- Courtot (P), «Altava », Encyclopédie Berbère, IV, Aix-en-Provence, Edisud, 1987, pp. 543-552.
17- Courtois (ch.), Les Vandales et l'Afrique, Paris, Arts et métiers graphiques, 1955.